

الكلمة ووظيفتها في الخطاب التواصلية

The word and its function in communicative discourse

أحمد عزوز

جامعة وهران، أحمد بن بلت
(الجزائر)

azouzahmed@hotmail.com

تاريخ القبول: 2024/04/23

تاريخ الاستلام: 2024/02/07

ملخص:

اللغة هي آلة الفكر وخادمه؛ بل هي الفكر نفسه وجوهره، وهي الأداة التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ومشاعرهم، ومعرفة ألسنة الآخرين سبيل إلى فهمهم، والتواصل معهم. وتمثل الكلمة الوحدة الصغرى في العملية التواصلية والتبليغية وأساس المعاجم، وعنصرها أساسيا في الاحتفاظ بتاريخ وثقافة المجتمع. ولهذا أكدت الدراسات في مختلف المجالات على أهميتها، ورسمت لها المسار المستقيم الواضح، وأعطتها دورا حضاريا بارزا ليس في مجال الأدب والفلسفة والفن والتاريخ والسياسة والاقتصاد فحسب، بل في مجال العمران والتعاون الإنساني والعلاقات الاجتماعية والسلوكية، فتحددت وظيفتها وأهدافها لتكون أداة بناء وتعمير وليس وسيلة هدم وتدمير. وستتناول في هذا المقال بعد المقدمة الفكرة والكلمة على أهما من مظاهر الحياة الإنسانية، وعناصر الكلمة العربية، والمفردة والدلالة، والسياق ودوره في تحديد المعنى، والمفردات والشخصية، والكلمة، واللغة والهيمنة فخاتمة.

*الكلمات المفتاحية: اللغة- الكلمة- الدلالة- التركيب- السياق- الهيمنة- الثقافة.

Abstract:

Language is an instrument and servant of thought; but it is thought itself and its essence, and it is the tool by which every people expresses their goals and feelings, and knowing the tongues of others is a way to understand them and communicate with them.

The word represents the smallest unit in the communication, the basis of dictionaries, and an essential element in preserving the history and culture of society.

That is why studies in various fields have emphasized its importance, charted its straight and clear path, and given it a prominent cultural role not only in the field of literature, philosophy, art, history, politics, and economics, but, in the field of civilization, human cooperation, and social and behavioral relations, its function and objectives were determined to be an instrument for construction and reconstruction and not a means of demolition and destruction.

In this article, after the introduction, we will research the idea and the word as aspects of human life, the elements of the Arabic word, the word and semantic, context, and its role in determining meaning, vocabulary, personality, word and culture, language and domination, as a conclusion.

Keywords: language - word - connotation - structure - context - domination- culture.

. مقدمة:

اللغة هي آلة الفكر وخادمه؛ بل هي الفكر نفسه وجوهره، وهي الأداة التي يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم وأغراضهم ومشاعرهم، ومعرفة السنة الآخرين سبيل إلى فهمهم، والتواصل معهم، ولذلك حظيت بمكانة متميزة عند مختلف الشعوب؛ إذ معرفتها لا تقل أهمية عن العلوم والمعارف، واكتساب المهارات والخبرات، وهي من أفضل سبل سبر شخصية الإنسان؛ بل لا يتم ذلك إلا بها.

وتمثل الكلمة الوحدة الصغرى والنواة الأولى في العملية التواصلية والتبليغية وأساس المعاجم، وعنصرا أساسيا في الاحتفاظ بالتاريخ والثقافة.

ويحسن اختيارها في نقل الشعور والأفكار والمبادئ إلى الآخرين؛ لأنها تعبر عن مجالات الحياة المختلفة، كما أنها ميدان بحث علوم شتى، ويعالجها العلماء في الاختصاصات المختلفة من نحاة ولغويين ومعجميين وفلاسفة وعلماء أصول وعلماء النفس وعلماء اجتماع وأثنوبولوجيا وغيرهم.

والعلم الذي يهتم بالمفردات وأصولها ودلالاتها يطلق عليه علم المفردات، ويقابله في اللغة الفرنسية **lexicologie**، وهناك فرق بين اهتمامات علم المفردات وعلم المعاجم. فإذا قلنا إن أساس علم المعاجم هو المفردات؛ فإن علمها يركز على ما تحمله من معنى في ذاتها وفي التركيب والاستعمال، وتطور توظيفها عبر الزمن، وما يطرأ عليها من تغيير في الأصوات، ومدى تأثير كل ذلك في المعنى، ويكون بذلك المعجم هو تدوين للحضارة واتجاهاتها وما دياتها ومعارفها وغير ذلك.

فالمفردات هي اللوح الذي يحفظ معارف الشعوب، ومن خلال دراستها في مختلف الأزمنة ومقارنتها، نستخلص مراحل تقدمها ورتبتها، فورا كل كلمة سبب وجود وسلوك واتجاه، فلا تولد كلمة إلا لعلّة، وهي تسجل الأحداث والوقائع، وهي عنصر أساسي في الاحتفاظ بالتاريخ والثقافة، وأساس المعاجم التي لا تتحقق إلا بها.

ومن المعلوم أنه من سبل التعبير عن الفكر هي " الكلمة"، فإذا كانت الصورة والكاريكاتور والأداء التمثيلي - مسرحا كان أو سينما- والأصوات الموسيقية وغيرها تعدّ من وسائل التعبير، فإن الكلمة كانت عبر

التاريخ الإنساني وستظلّ تحتلّ مركز الصدارة في مجال التخاطب وترجمة الفكر ونشر الثقافة، سواء كانت هذه الكلمة مسموعة أو مرسومة، ولهذا أكّدت الدراسات في مختلف المجالات على أهميتها، ورسمت مسارها المستقيم الواضح، وأعطتها دورا حضاريا بارزا ليس في مجال الأدب والفلسفة والفنّ والتاريخ والسياسة والاقتصاد فحسب، بل في مجال العمران والتعاون الإنساني والعلاقات الاجتماعية والسلوكية، فتحددت وظيفتها وأهدافها النافعة لتكون أداة بناء وتعمير وليس وسيلة هدم وتدمير.

2. الفكرة والكلمة من مظاهر الحياة الإنسانية:

الفكرة والكلمة حقيقتان متلازمتان في حياة الإنسان، وهما أبرز مظهر من مظاهر إنسانيته، وأعمق سبب من أسباب رقيه وتطور مدنيته، وتزوّده قدرة الإنسان على التعلّم ليفهم ويدرك ويبدع ويكتشف ويكتساب المعارف ويدرك الواقع؛ لأنّ العلاقات الإنسانية التي تربط أفراد المجتمع وتشكّل كيانهم ووجودهم، هي ناتجة عن الأفكار والكلمات التي يتخاطبون بها، وينقلون بها الأحاسيس والمشاعر، وعن طريقها يثبتون ذاتيتهم ويحققون تصوّراتهم.

وقد قال تعالى في سورة إبراهيم: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ"¹.

2 . عناصر الكلمة العربية

ترتكز الكلمة العربية على عناصر ثلاثة، وهي التي تعطي باجتماعها مادتها ومعناها، وتتضح كما يأتي:

أ- مادة تركيبها وهي الحروف أو الأصوات التي تتألف منها وهي قسمان:

أ- نواة وهي الحروف الثلاثة الأصلية التي تتركب منها جميع الكلمات العربية كالحروف (ع، ل، م) في (استعلام، تعلّم، تعليم، علم، علم، عالم، عليم، معلّم، معلّمة، علامة، إعلام، معلومة...). والحروف الزائدة التي تتبدّل مع ثبات الحروف الثلاثة كالميم والألف والتاء والنون والواو.

ب- معنى الكلمة، المتكوّن من دلالة مركزية تتجلى في الحروف الثلاثة الأصلية، والمعنى الزائد الناشئ عن تخصيص المعنى الأصلي، وتحديدته عن طريق الصيغة التي تُصاغ فيها الكلمة، وذلك في مثل (معلّم وعالم، ومعلوم)، فهي جميعها تحتوي دلالة العلم بوجه عام، ولكن كلّ مفردة تنفرد بما هو خاص بها، فالمعلّم يدلّ على المكان، و(عالم) على من له العلم الغزير، و(معلوم) ما أصبح معروفاً.

1.2. المعنى الخاص للكلمة، وهو الذي يميّز ذاتيتها الناشئة عن ظروفها التاريخية وملابساتها والبيئة التي عاشت واستُخدمت فيها، فدلالة "رأس المال هو جملة المال التي تستثمر في عمل ما"²، ولإنشاء نشاط اقتصادي وتجاري، والرأسمالية هي النظام الاقتصادي الذي يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة³، فالملاحظ أنّ الدلالات نشأت من الظروف التاريخية والاجتماعية لكل كلمة من هذه الكلمات.

إنّ معرفة الأبنية في العربية تُعلّم تصنيف المعاني، وربط المتشابه منها برباط واحد، وتُعلّم أبناءها المنطق في التعامل مع لغتهم بطريقة ضمنية طبيعية فطرية بعدما يكتسب كفايتها في البيئة المعينة.

3. المفردة والدلالة

لقد استخدم العرب قديماً وحديثاً وسائل وآليات مهمّة لصياغة كلمات لغتهم منها: الاشتقاق، والنحت، والتركيب، والاستنباط، والتعريب، والاختصار، والنسب والتصغير وغيرها.

وبناؤها هي اتحاد الألفاظ مع قوالب المعاني التي تُصبّ فيها الألفاظ، فتختلف في الوظيفة التي تؤديها. فـ (العالم) و (المعلوم) و (المعلّم) تختلف في مدلولها مع اتّفاقها في المعنى العام، وأصل المفهوم العِلْم الذي هو النظر والفهم، فالكلمة الأولى فيها معنى الفاعلية والثانية المفعولية والثالثة المكانية.

وبين أوزان الألفاظ في العربية ودلالاتها تناسب وتوافق، فصيغة (علّام) مبالغة اسم الفاعل (عالم) تدلّ بما فيها من تشديد الحرف الثاني على الشدّة أو الكثرة، وبألف المدّ التي فيها الامتداد والفاعلية.

وقد استثمر الشعراء والكتّاب العرب هذه الخاصية الإيقاعية المرتبطة بتركيب الكلمات وحسن تنظيمها وتآلفها، فقابلوا بين نغمة الكلام وموضوعه مقابلة لها أثر في المجال الفني يشعر بها من يتذوّق هذه اللغة ويفهمها. فمن ذلك قول البحريّ (ت284هـ) يمدح الخليفة ويصف البركة:

مِيلُوا إِلَى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحْيِيهَا***تَعْمٌ، وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِهَا⁴
حيث يتجلّى العشق والهيام من يتأمل الكلمات بإيقاعها في التركيب وتنفو نفسه برقتها وحنانها الشاعرة، وما تنقله لها رسوم وآثار الحبيب بعدما ارتحل، وما في البيت من نعومة وماء الحروف ودلاقتها وكثرة مدودها، وحسن توزّعها ووقعها من نظم تركيب الألفاظ.

ويصف البحريّ (ت284هـ) الذئب حين لقيّه:

عَوَى ثُمَّ أَفْعَى*، فَارْتَجَزْتُ فَهَجَّئُهُ*** فَأَقْبَلَ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ⁵
إذ ينقل تتابع حركات الذئب السريع في ألفاظ قصيرة الأوزان، متوالية الحركات بما يشبه سرعة خطوه أثناء جمعها للوثب، وما تحفقه حروف العطف من (ثم) و (الفاء) وحركات الأفعال المتسلسلة المعبرة عن سرعة تماثل البرق في

ومضاته، ويرتفع صوته الذي يكاد يضاهي الرعد. وقد بلغت هذه الخاصية الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني في مثل سورة العاديات التي تصوّر عدوّ الخيل في قوله تعالى: (والعاديات ضَبْحًا. فالموريات قدْحًا. فالمغيّرات صُبْحًا. فَأَثَرُنَ بِهِ نَفْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا)⁶.

فالإخلال بهذه الأبنية وإفسادها هو إفساد لنظام اللغة حين الكتابة أو التواصل الشفوي، ومن ثمّ كان العرب إذا أدخلوا كلمة أعجمية احتاجوا إليها في تعبيرهم صاغوها وفق نماذج ألفاظهم وأصواتها، وبنوها على أحد أبنيتها وصرّفوها على أوزان لغتهم ليكون التعبير راقياً ويُجَمِّلُ المعنى.

ولقد عبّر عن ذلك ابن جني في باب " أنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب " فقال: " هذا موضع شريف. وأكثر النَّاسِ يَضْعُفُ عن احتمالها؛ لغموضه ولطفه. والمنفعة به عامّة، والتساند إليه مُقَوِّمٌ مُجْدٍ. وقد نصّ أبو عثمان عليه فقال: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب؛ ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلِّ فاعل ولا مفعول، وإنّما سمعت البعض فقست عليه غيره. فإذا سمعت " قام زيد " أجزت " ظرّف بشرّ"، و"كرم خالد".

قال أبو عليّ: إذا قلت: " طاب الحُشْكَانُ"^{*}، فهذا من كلام العرب؛ لأنّك بإعرابك إيّاه قد أدخلته كلام العرب.

ويؤكّد هذا عندك أنّ ما أُعْرِبَ من أجناس الأعجمية قد أجزته العرب مجرّى أول كلامها؛ ألا تراهم يَصْرِفُونَ في العلم نحو آجر، وإبريسيم، وفرند، وفيرنج، وجميع ما تدخله لام التعريف. وذلك أنّه دخلته اللام في نحو الدّيباج، والفِرْنِدِ، والسُّهْرِيْزِ^{*}، الأجر؛ أشبه أصول كلام العرب، أعني النكرات. فجرى في الصرف ومنعه مجراها"⁷.

ومّا هو شائع أنّ معنى الكلمة يحدّده الاستعمال والتوظيف في التركيب، وهذه الفكرة في عمومها مؤكّدة ومقبولة، ويفهم من ذلك أنّ وجودها خارج السياق لا يكون محدّداً، فمثلاً إذا نطق المرء كلمة "كرسي" فندرك أنّه الوسيلة التي يجلس عليها المرء، ولكن إذا كان يقصد "كرسي العلم" أي رتبة علمية ينالها مبدع علم من العلوم أو منهم من المناهج في جامعة من الجامعات، أو معهد من المعاهد، فإنّ هذا المعنى لا يُدْرِكُ إلا بتوظيفه.

كما أنّه لا يكفي - دائماً - الاستعمال لتحديد المعنى، ولكن الثقافة والتداول في مجتمع بعينه أيضاً، ومن ذلك أنّ كلمة "العائلة" قد يوظّفها الفرد للدلالة على الأسرة أو كلّ فرد منها قريباً كان أو بعيداً، وهي كلّ من يعولهم الشخص، ومن يضمّهم بيت الرجل، وعائلة الشخص زوجته وأولاده وأقاربه، على عكس الأسرة التي هي جماعة يربطها أمر مشترك، وهي أهل الرجل وعشيرته، وأسرة الرجل: الرّهط الأدنون⁸، أما بعض العرب - مثلاً - إذا سمعك قلت أنّ الأخ من العائلة فهذا يغضبه؛ لأنّه يعتبر من أكثر الأفراد قرابة، على الرّغم من أنّ هذا لا ينفى عنه بأنّه من العائلة في دلالتها.

ولذلك يرفض كثير من الدارسين الترادف في اللغة، وعلى سبيل المثال "عندما ننظر إلى المرأة، ونجدها قوية، نقول عنها فتاة؛ لأنّ الفتوة هي القوة، وعندما نجد في الكلمة شدة الشوق والصبابة نقول عنها صبية، وعندما تكون ناعمة لينة وتتمايل برقة ودلال نقول عنها غادة. وهكذا يظهر ألاّ ترادف في اللغة، وما نظنه مترادفات، إنّما هو ألفاظ متقاربة في المعنى، وفي كلّ لفظ هناك معنى عام وآخر ثانوي خاصّ وهو من ظلاله، ولا وجود له فيما هو قريب منه⁹.

4. السياق ودوره في تحديد المعنى

لقد درج الباحثون ومدرسو اللغات القول إنّ السياق يوضح دلالة الكلمة؛ لأنّها موظّفة في الاستعمال التعبيري الموضوعي الصرف، وهو الذي يحددها، وقد تنتقل إلى غير ذلك حتّى تثير في الذهن دلالة أخرى. فإذا أخذنا كلمة "جدار" فإنّ دلالتها هي "الحائط"؛ لكن "جدار الفصل العنصري" الطويل الذي بنته إسرائيل في الضفة الغربية قرب الخط الأخضر، فدلالته تثير في الذهن التمييز والظلم والقهر.

والعبارة التي قالها عبد الله بن عمر (ت73هـ) أو غيره: "إذا اشتريت اللحم يضحك جدّ البيت"، يريد أنّ أهل الدار يفرحون حسب ابن سيده (ت458هـ)، فبعض الكلمات المستعملة في الحياة اليومية العادية قد تكتسب إيقاعا عاطفيا قويّا غير منتظر، وهكذا نرى بأنّ السياق وحده هو الذي يساعدنا على إدراك التبادل بين المعاني الموضوعية والعاطفية والانفعالية.

ولهذا كان العرب يفاخرون بصفة خاصّة بالأدب وبالكلمة بصفة عامّة، وأنّهم امتلكوا لغة تمكّن الإنسان من توظيفها في أكثر من حال، وبطريقة أوسع، ومن ثمّ فلها:

أ- أهمية في التواصل،

ب- وما تثيره في الذهن من عواطف وانفعالات.

قال تعالى: "لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ"¹⁰.

نلاحظ في الآية استعمال الله عزّ وجلّ الفعل "وَهَبَ" للجنسين: الإناث والذكور، والهبة إنّما تكون في الخير، "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"¹¹، "رَبِّ وَهَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ"¹²، فكلاهما هبة من الله سواء كانا ذكورا أو إناثا.

قال ابن منظور (ت711هـ): "الهِبَةُ: العَطِيَّةُ الخَالِيَةُ عن الأَعْرَاضِ والأَعْرَاضِ، فإذا كَثُرَتْ سُمِّيَ صاحبُها وَهَّابًا، وهو من أبنية المُبالِغة. الوَهَّابُ، من صفاتِ الله، المُنعِمُ على العباد، واللهُ تعالى الوَهَّابُ الوَاهِبُ"¹³.

5. المفردات والشخصية

إنّ الكلمات في اللغات ليست كائنات حيّة تعيش منفردة مستقلّة فحسب، بل إنّها مصنّفة في مجموعات ترتبط كلّ واحدة منها بنوع من القرابة يختلف في قوّته وضعفه، وظهوره وخفائه من لغة إلى أخرى.

ولا شكّ أنّ البيئة الفكرية أشدّ أثرا من البيئة الطّبيعية في العقول والنفوس، فعن طريقها يتمّ معرفة الماضي القريب والبعيد، وبها تتلقّى الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة العقائد والمفاهيم والعواطف، وعن طريقها كذلك تتعرّف على آرائها وأفكارها. فهي تمثّل إلى حدّ كبير خصائص الأُمّة، وتحتفظ بصور تاريخها ورواسب ماضيها إلى جانب رؤاها وأفكارها الحاضرة والمستقبلية. ومعناه أنّ فنّ الكتابة أي الطريقة التي يكتب بها كاتب من الكتاب فتكشف شخصيته، ولا يفترق الأسلوب عن المعنى، ولذلك يصعب الترجمة، والنقل الكامل لما هو في فكر الآخر.

كما وردت العبارة "الأسلوب هو الرجل نفسه" "le style c'est l'homme" التي قالها بوفون (Buffon) أمام الأكاديمية الفرنسية في ما أسماه بخطاب حول الأسلوب سنة 1753: "هذه الأشياء خارجة عن الإنسان، الأسلوب هو الرجل نفسه"¹⁴.

وترتبط المفردات بعنصر اختيارها في التعبير، ووضعها في الموقع المناسب، ويتميّز الأسلوب فيكون من صاحبه؛ بل هو صاحبه حسب بوفون. وقد ينسب هذا القول إلى بلاز باسكال¹⁵، ومفاد ذلك أنّه مرآة روحه لأنّنا نستطيع أن نتعرّف على عقله وفكره وشخصيته ورؤاه من أسلوبه الذي تصطبغ فيه سماته وعلاماته وتكون خاصّة به، ويختلف به عن الآخرين؛ إذ لكلّ فرد أسلوبه وطريقة بناء تركيبه وتعبيره. والذي ليس له أسلوب خاصّا به يمكن القول إنّّه لا يملك طابعا يميّزه؛ بل لقد قال بول كلي: "أنا هو أسلوبِي"¹⁶.

6- الكلمة والثقافة

يقول جاليسون¹⁷ Robert Galison "إنّ الهدف الأساسي من تعلّم لغة من اللغات هو التوظيف الثقافي في عالم الآخر"، فاللغة هي الجسر الذي يمرّ به الفرد نحو ثقافة مجتمعه والمجتمعات الأخرى، وبها يستطيع التكيّف في هذا أو ذاك، ولذلك وجدنا مجتمعات مثل - ألمانيا - لا تحصل فيها على الجنسية بل الإقامة؛ إلا إذا تمكّنت من تعلّم لغتها وحصلت على شهادات في مستوياتها ومهاراتها اللغوية كتابة وشفاهة، ولا ينال المهاجر أو اللّاجئ المساعدات الاجتماعية في هولندا ما لم يتعلّم لغتها.

ولعل الغاية من معرفة لغة المجتمع هي فهم ثقافته، والقدرة على التواصل مع أفرادها، والتمكّن من قضاء المصالح دون صعوبة، وكذا دون حاجة إلى مرافق من أهل البلد أو مترجم.

ويمكن أن نفهم تلك العلاقة بين المفردات والثقافة من خلال بعض الكلمات التي لا يدرك معناها الكلّي بمجرد فهم معاني مفرداتها، وضمّ هذه المعاني بعضها إلى بعض في تركيب، أي مجموعها هو الذي يكون دلالتها الكلية، ومثال ذلك: " سَلَّمَ سَاقِيهِ (رِجْلَيْهِ) لِلرَّيْحِ"، فظاهر معنى الكلمات هو إعطاء الرجلين للريح أي منحهما له، وهو غير ممكن وبعيد عن دلالة التركيب، وهذا غير واضح، وغير مفهوم، ولكن دلالة التركيب تفيد هرب الإنسان مشرعاً، أو فرّ من أمر ما.

ومثله "أصابع العدوّ في الزناد"، أي مستعدّ للهجوم والضرب. فالتركيب هو علاقات بين مفرداته، لا يمكن تفسير معناه من خلال ما هو ظاهر، وإمّا لا بدّ من إدراك تلك العلاقات في السياق اللغوي العام، وفي الثقافة أيضاً.

ولم تغفل المعاجم وهي تشرح غموض الكلمات وتقدّم الشواهد ودلالاتها، موضوع ثقافة المجتمع في متنها، إذ كثيراً ما يتعرّض لها صاحب المعجم، وهو يشرح ويعطي الدلالات والشواهد سواء من الاستعمال الذي وردت فيه الكلمة أو من خارجه، وهو توثيق وتسجيل لعادات المجتمع وسلوكاته وعلاقاته، ومن ذلك "العقيقة التي أصلها الشّعر الذي يخرج على رأس المولود وهو في بطن أمّه، ومنه سمّيت الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه "عقيقة"؛ لأنّه يخلق عنه ذلك الشعر عند الذبح، فسميت الشاة عقيقة لعقيقة الشعر¹⁸.

وكذلك كلمة "الموودة" من وأد الموودة، وفي الصّحاح للجوهري (ت393هـ) وأد ابنته يدها وأدا: دفنها في القبر وهي حيّة، أنشد ابن الأعرابي (ت231هـ):

ما لقي الموؤد من ظلم أمّه*** كما لقيت دُهلٌ جميعاً وعامرُ

أراد من ظلم أمّه إياه الوأد، وهي المذكورة في القرآن الكريم: " وإذا الموءودة سئلت¹⁹، قال المفسرون: كان الرجل من الجاهلية إذا وُلِدَتْ له بنتٌ دفنها حين تضعها والدتها حيّة مخافة العار والحاجة²⁰، فأنزل الله تعالى: " وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثى ظلَّ وجهه مسودّاً وهو كظيم، يتوارى من سوء ما بُشِّرَ به أيْمَسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"²¹.

وقال لمن يخاف الفقر حين تولد له البنت في موضع آخر: " ولا تقتلوا أولادكم حَسْبِيَّةٍ إِمْلَاق، نحن نرزقهم وإيّاكم، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا"²².

وهذا من ثقافة المجتمع ومن الشّرع أيضا، ودلالة الكلمة توضّح سلوك العربي حينما كانت تولد له أنثى، وهكذا فإنّ المفردة تصبح مرآة للحياة الاجتماعية في زمن معيّن، ومدوّنة نفهم في ضوئها تعامل العربي وعائلته؛ بل المجتمع مع المولود، وندرك بذلك معناها الحياة الاجتماعية وسلوك أفرادها وغير ذلك.

7 - اللغة والهيمنة

لقد ربط ابن خلدون (ت 808هـ) وغيره ربطا محيّرًا منذ قرون بين اللغة والهيمنة، وكذلك بشروط اجتماعية وجغرافية وتاريخية، أو سوسيو ثقافية، ورأى اللغة بيد السّلطة لتشريع هيمنتها وفرض قوّتها، فهي ليست قوّة في حدّ ذاتها، وإنّما الهيمنة ترفع من شأنها فتُعَلِّمها أو تدنيها. ولعلّ تأكيدات ما أنتجه تساعد على فهم المسألة اللغوية، حاضرا بالاستناد في علاقاتها بروابط القوّة²³.

فباللغة المهيمنة هي التي تحتكر القول، وتفرض شرعيتها، هي لغة المجتمع المهيمن بدينه حسبّه، أي إنّ من عوامل الهيمنة اللغوية انتشار الدّين الذي ينشر بالضرورة لغته، فهو يقول: "اعلم أنّ لغات أهل الأمصار إنّما تكون بلسان الأُمَّة، أو الجيل الغالبين عليها أو المَحْتَضِّين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلّها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيّة، وإن كان اللسان العربيّ المضريّ قد فسدت ملكته وتغيّر إعرابه، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من العَلَب على الأمم، والدّين والملة صورة للوجود والملِك"²⁴.

فهو لا يقف مثلا، عند علم النحو القائم على المنطق بتجريدته؛ ولا يدرُس اللغة في ذاتها ولذاتها على حدّ رأي دي سوسير؛ بل يربطها بالواقع، ويرأها نابعة منه، لأنّها شديدة الصّلة بالممارسة والاستعمال، أي بالمجتمع في وحدته وكتلته، فاللغة عنده ملكة في اللّسان تحصل بممارسة فعل الكلام ومعاودته، حتّى ترسّخ منوالا، يرتسم في المخيال بعد طول معايشة وما وعاه وحفظه من أساليب كلام العرب وترتيب ألفاظهم، فتحصل هذه الملكة بالحفظ والاستعمال، فتصبح صفة راسخة في الفرد، ينسج عليها ويعيد إنتاجها من جديد، فالممارسة هي التي تبني المنوال والتّمط والنموذج²⁵، على رأي أحمد بن فارس (ت 392هـ) قبله، وتشومسكي في العصر الحديث.

إنّ سيادة لغة في زمن معيّن وانكباب الناس على تدريسها وتدارسها لا يضّر اللغة الأمّ، لكن الذي يؤثّر فيها سلبا هو التفاف الناس حول لغة قد لا تكون لها تلك المكانة بين اللغات، وتوجد جهة أو جهات تمّدها العون لتبقى متسلّطة، أو تسعى لتحلّ محلّ اللغة الأمّ؛ لأنّ الهيمنة اللغوية سياسة موجّهة ومن غاياتها انتشار لغة على حساب أخرى.

وإذا كان هناك من يقول إنّ الكلمات هدايا فلربّما قد نلّمس خلاف عندما تحدّث جان بول سارتر²⁶ في كتابه "ما الأدب؟" عن الالتزام مؤكّدا أنّ الكاتب له موقف في عصره، فقال أيضا: إنّ الكلمات مثل المسدّس

المملوء" وهو يعني قدرة الأدب على التعبير عن الأفكار، وهو سلاح قوي يقاوم الظلم ويطوّر العالم ووسيلة ترقية المجتمع²⁷، ومن ذلك التأثير والهيمنة.

8. خاتمة

وأخيراً يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ في التعبير عنصر أساسي في الاحتفاظ بالتاريخ والثقافة، وهي أساس المعاجم التي لا تتحقّق إلا بها. وتتميّز بإيقاعها في نظم الكلام، والكلام العربي نشراً كان أم شعراً لا يخرج عن أن يكون تركيباً معيناً ومجموع الأوزان لنماذج موسيقية، وهي أداة في فنّ القول والكتابة في الكشف عن الشخصية وأحاسيسه وعواطفه، ولا تفهم إلا في السياق الذي يحدّد دلالتها الخاصّة التي تنفرد بها.

ولم تعد موضوع دراسة علم النحو أو علوم اللغة، وإمّا هي مجال اختصاصات عدّة مثل الإعلام والاتّصال والعلوم السياسية والاجتماعية والتاريخ والأنثروبولوجية وغيرها، وأصبحت تعقد لها الملتقيات لأهميتها في التعليم والتعلّم والتواصل، وبالتالي فهي تقف بين مختلف الحقول المعرفية لأنّ من أبرز سماتها تسجيل قضايا الأمتة وتطورها.

9. الهوامش:

* عزوز أحمد

1 - سورة إبراهيم، الآيات 24-27.

2 - د. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط. ط: 2، سنة 1972، مادة (ر، أ، س).

3 - المرجع نفسه والمادة نفسها.

4 - ديوان البحري، دار صادر، بيروت. لبنان، مج: 1، ص: 34.

-أقعى: قعد على أليته استعداداً للوثوب. -ارتجرت: أنشدت رجوا. -هجته: اهتاج لسماع صوتي فأقبل بسرعة كالبرق مخرجا صوتا * مثل الرغد.

5 - ديوان البحري، مج: 1، ص: 197.

6 - سورة العاديات، الآية: 1-5.

الحُشْكَانُ: يقابله في العصر الحديث البسكويت، وهو خالص دقيق الحنطة إذا عجن بشيرج، وبسط وملئ بالسكر واللوز والفسق * وماء الورد، وجمع وخبز. وأهل الشام يسمونه المكفن، ينظر الخصائص، ج: 1، ص: 357.

* السهريزي: بكسر السين وتضم -ضرب من التمر.

7 - ابن جنّي أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت. ط: 2، ج: 1، ص: 357.

8 - ينظر لسان العرب، مادة (أ، س، ر).

9 - ينظر د. نسيم عون، اللغة في المعرفة. ص: 262.

- 10- سورة الشورى، الآية:49-50.
- 11- سورة آل عمران، الآية:8.
- 12- الصافات، الآية: 100.
- 13- ابن منظور، لسان العرب، مادة (و،ه،ب).
- 14 <https://www.devoir-de-philosophie.com>
- 15- بلاز باسكال ولد1623 وتوفي1662.
- 16- رسّام ألماني سويسري (1879-1940).
- ولد سنة 1932، وتوفي في 2020، لساني فرنسي وأستاذ بجامعة السوربون، وله كتاب مهم بعنوان: "من اللغة إلى الثقافة بالكلمات".¹⁷
- 18- ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (ع،ق،ق).
- 19- سورة التكوير، الآية:8.
- 20- ابن منظور، لسان العرب. مادة (و،أ،د).
- 21- سورة النحل، الآية:58-59.
- 22- سورة الإسراء، الآية:31.
- 23- ينظر محسن بوعزيزي، اللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون، ضمن اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط:1، سنة:2007، ص:146.
- 24- ابن خلدون، المقدمة. دار الكتب العلمية، بيروت. ط:1، سنة 1993، ص:298.
- 25- ينظر ابن خلدون، المقدمة. ص:481.
- سارتر كاتب وفيلسوف فرنسي (1905-1980) مؤسس ، رفض نيل جائزة نوبل في 1964، أوضح بأن الحرية شرط مبدئي
- 26-مجلة الأزمنة المعاصرة في الفن. وخصّص جزءا من دراساته في البحث عن العلاقة بين الكاتب وما يكتبه.
- 27 <https://www.dicocitations.com>